المحاضرة الحادية عشرة

السرد في النص الشعري القديم "الشعر القصصي"

كما اختلف النقاد في ماهية الشعر، اختلفوا كذلك في أقسامه وأنواعه، فمنهم من قسمه إلى شعر ذاتي (حديث الشاعر عن مشاعره وأحاسيسه) وشعر موضوعي تختفي فيه "الأنا"، لتحل محلها (النحن) (حديث الشاعر عن الموضوعات الخارجية). ويبقى التقسيم الأكثر دقة –في اعتقادنا– هو التقسيم الذي استند إلى معايير فنية وموضوعاتية، والذي تبناه كثير من النقاد، نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد أمين[1] الذي قسم الشعر إلى: شعر قصصي، وشعر تمثيلي، وشعر غنائي، وشعر تعليمي وشعر الطبيعة، وشعر الإنسانية. وإن كنا نوافقه على الأنواع الأربعة الأولى أعلق، فإننا نحسب أن شعر الطبيعة، وشعر الإنسانية، الأول أعلق بالشعر الغنائي، والثاني بالشعر الموضوعي (القصصي أو العلمي أو التمثيلي)، والذي يهمنا من هذا التقسيم هو الشعر القصصي.

أولا. مفهوم الشعر القصصي:

ينبغي أن نفرق بداية بين الشعر القصصي والشعر الملحمي، فالملحمة الشعرية هي قصة شعرية طويلة موضوعها البطولة، وبطل الملحمة يكون شخصا ذا قيمة وطنية أو عالمية، فهو في الإلياذة (أخيل) بطل اليونان، كما تجري الملحمة في آفاق رحبة... وأسلوبها يتسم بالفصاحة والقوة[2].

أما الشعر القصصي، فهو شعر موضوعي قصصي، فكل "قصيدة تقص قصة يكون الغرض الظاهر منها حكاية هذه القصة تسمى شعرًا قصصيا"[3].

---

[1] أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1967، ص93.

[2] ينظر، محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن، ص222–223.

[3] أحمد أمين، النقد الأدبي، ص97.

ويشترط "أحمد أمين"[1] في أسلوب الشعر القصصي جملة من الشروط نجملها فيما يلي:

1- يجب أن يعتمد على قوة الإيحاء والتلميح.

2- يجب أن يعرض الشاعر موضوعه بحيث يبدو أن فيه الحياة حقيقية وقوة حقيقية.

3- يجب أن يعرض قصته عرضا لذيذًا يوحي بالجمال، ويقدم للسامع أو القارئ متعة جمالية.

ثانيا. تاريخ الشعر القصصي:

شاع هذا النوع في القرون الوسطى خاصة في فرنسا عند الطبقة الأرستقراطية، ويعرف باسم قصص الطبقة الراقية فهو موجه لجمهور مخصوص (طبقة النبلاء)، وكان هذا اللون من القصص يهدف إلى تصوير مثل عليا للحياة الثقافية والعاطفية، وقد قسمت هذه القصص إلى أربعة أنواع[2] هي:

1- قصص القدماء: تدور هذه القصص حول أساطير اليونان والرومان، مثل قصة طروادة، وقصة طيبة وقصة إينياس.

2- قصص البريطانيين: وتعرف بقصص المائدة المستديرة، وهذه القصص الأسطورية تدور حول الملك (آوثر) وفرسانه.

3- قصص المغامرة: وهي لون من القصص الفرنسي في العصر الوسيط يتغلب فيه عنصر المغامرة، وتدور حول الحب والفروسية مثل (قصة الظل).

4- المنظومات القصصية القصيرة: وهي قصص تمتاز بالقصر والتركيز والإيجاز، ومن ناظمي هذا النوع شاعرة فرنسية تدعى ماري دي فرانس، أواخر القرن الثاني عشر.

كما شاع الشعر القصصي في آداب الشعوب الإسلامية خاصة في بلاد فارس، فمنذ القرن الثالث للهجرة بدأ المسلمون الفرس بإحياء الأدب الفارسي القديم[3]، فأخرجوا نماذج راقية

---

[1] المرجع السابق، ص97-98.

[2] للتوسع ينظر، محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن، ص223 إلى 237.

[3] ينظر، المرجع السابق ، ص266 إلى 270.

نسج على منوالها شعراء الشعوب الإسلامية الأخرى خاصة في تركيا وباكستان، فالشعر الفارسي الإسلامي يعد نقطة انطلاق جديدة لعبقرية الفرس وإبداعهم الأدبي.

وإذا كان للعرب فضل السبق والريادة في الشعر الغنائي، فإن القيادة في الفنون القصصية (الشعر القصصي) كانت لأهل الفرس، يقول عبد السلام كفافي: "إن الشعر القصصي في آداب الشعوب الإسلامية قد ازدهر على يد الفرس وتنوعت فنونه، ولقد كان (المثنوي[*]) هو الشكل الأدبي الذي صاغ فيه الفرس ملاحمهم ورواياتهم وبطولاتهم الأدبية والتعليمية"[1].

وبدأ إنتاج الشعر القصصي في الأدب الفارسي على يد "أبو جعفر الرودكي" الذي (نظم كتاب كليلة ودمنة) لأغراض تعليمية، وأبو منصور الدقيقي الذي نظم تاريخ الفرس وقصصهم البطولي، وأبو المؤيد البلخي الذي نظم (قصة يوسف وزليخا).

ويعد الشاعر نظامي الكنجوي أمير الشعر القصصي "لم تعرف الإنسانية في زمانه شاعرًا يدانيه في فنه... فهو من أعظم شعراء القصة في الآداب الإسلامية، وأبعدهم أثرًا في تاريخ تطور هذا الفن"[2]. عاش هذا الشاعر أواخر القرن السادس للهجرة.

شعره القصصي جمع في منظومات خمس اشتهرت باسم (خمسة نظامي) أو باسم (ينج كنج) أي الكنوز الخمسة، وهي:

1- مخزن الأسرار: تشمل على نحو 2250 بيتًا وهي مثنوي أخلاقي فلسفي.

2- خسرو وشيرين: وخسرو هو كسرى پرويز أحد ملوك العصر الساساني.

3- ليلى والمجنون: والذي اشتهرت قصتها بين العرب.

4- هفت پيكر: أي (الصور السبع) أو (القباب السبع) ومحور هذه المنظومة هو الملك الساساني بهرام الخامس.

---

[*] المثنوي أو الشعر المزدوج، كل بيت يستقل بقافية تقوم بين شطريه مما يساعد الشاعر على الاسترسال.

[1] المرجع نفسه ، ص280.

[2] المرجع نفسه، ص317.

5- إسكندر ناميه: وهي أطول أعماله القصصية (10500 بيت) يروي فيها هروب الإسكندري وفتوحاته[1].

فنحن حقيقة أمام قصاص بارع وقامة إنسانية بديعة في الشعر القصصي الإنساني، شاعر يحسن اختيار موضوعاته وله قدرة خارقة على التصوير.

تعمدنا الحديث عن الشعر القصصي عند الأمم الغربية القديمة والشعوب الإسلامية غير العربية، الفارسية تحديدًا، وما حققته هذه الأمم والشعوب من إنتاج قصصي وفير، بقي خالدًا في الآداب الإنسانية، وأخرنا الحديث عن الشعر القصصي في الأدب العربي حتى نقترب من الموضوعية في العرض والتحليل، لنقول إن الشعر القصصي بهذا النوع والكم لم يعرفه العرب في عصورهم القديمة، فماذا عرفوا إذن؟!

ثالثا. الشعر القصصي عند العرب:

إن العرب اشتهروا بالشعر الغنائي، فالعقائد المنظومة تصور مشاعر الشاعر وأحاسيسه، كما يتغنى الشاعر فيها بأمجاد وبطولات قومه "فاللغة العربية لم تعرف في جاهليتها شعرًا قصصيا، لا من النوع الملحمي ولا من أي نوع آخر"[2].

رغم توفر المادة القصصية كالحروب التي دارت بين القبائل العربية (حرب البسوس، حرب داحس والغبراء...).

حتى بعد مجيء الإسلام واتساع دائرة الدولة الإسلامية وإقبال العلماء والفلاسفة على ترجمة العلوم الدخيلة (الطب، الفلك، الفلسفة، المنطق) فإنهم لم يشتغلوا على ميدان الترجمة لآداب الشعوب الأخرى (اليونان، الرومان، الفرس) إلا في النزر القليل، فأشهر ما ترجم كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة.

فالقصيدة العربية في الجاهلية أو الإسلام كانت محدودة الطول لا تتجاوز 150 بيتا في الغالب، كما أن وحدة القافية حالت دون نظم المنظومات الطويلة... مما حال بينهم وبين

---

[1] للتوسع في مضمون هذه المنظومات القصصية، العودة إلى كتاب محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن، من ص313 إلى 363.

[2] المرجع نفسه، ص263.

نظم مطولات الشعر القصصي أو الملحمي، ومن المحاولات المبكرة في تطويع الشعر العربي للقصة ما قام به عبد المجيد اللاحقي (ت200هـ) وهو شاعر مكثر كما يقول ابن النديم: "وأكثر شعره مزدوج ومُسمط، وقد نقل من كتب الفرس وغيرها: كتاب كليلة ودمنة، وكتاب الزهر وبرداسف وكتاب السندباد، وكتاب مزدك"[1]. لكن هذه الأعمال مفقودة، ولم يبق لنا منها سوى أبيات تروى من منظومته (كليلة ودمنة).

ومما أشار إليه المحققون في هذا الباب كتاب (الصادح والباغم) للشريف بن الهّبارية المتوفى في أوائل القرن السادس الهجري، وهي منظومة تقع في ألف بيت، نظمها على أسلوب كليلة ودمنة.

وهكذا نرى "أن الشعر العربي لم تكن له القيادة في الفنون القصصية بل كانت تلك للشعر الفارسي"[2] ولهذا نقول إن المقولات التي يرددها كثير من الباحثين اليوم، حول الشعر القصصي العربي القديم، هي مقولات مهزوزة وهشة تفتقر إلى الدليل والبرهان، إن الشاعر العربي القديم تعلق بالقصيدة الغنائية وأبدع فيها دون سواها، هذا لم يمنع بعض القصائد من أن تتوفر على البعد السردي فيها، باعتماد الشاعر في معالجة موضوعه السرد القصصي، والحوار القصير وتصوير البيئة الزمانية والحكائية، خاصة في قصائد الحماسة وقصائد القيم والأخلاق، فالأسلوب السردي وجد منذ امرئ القيس ومالك بن الريب وعمرو بن أبي ربيعة... كما تجلى في حماسة ابن تمام، كما كان الشاعر الأندلسي يحي بن الحكم يميل في قصائده إلى استخدام السرد القصصي.

وإذا عدنا إلى القصيدة الجاهلية فإننا نجد من النقاد من ذهب إلى توصيف مغامرات الصعاليك على أنها من الشعر القصصي، من هؤلاء يوسف خليف الذي اعتبر "الصعاليك هم رواد القصة الشعرية في الأدب العربي"[3] ففي قصائد الشنفرى وتأبط شرا والسليك ابن السلكة، وغيرهم تبرز العناصر السردية (الفضاء المكاني والزماني) والشخصيات ونسق الأحداث (نسق التتابع ونسق التضمين).

---

[1] ابن النديم، الفهرست، ج1، ص119.

[2] محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن، ص279.

[3] يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص282. نقلاً عن ضياء غني لفتة، البنية السردية في شعر الصعاليك، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص74.

وفي المختم نضع بين أيدي طلبتنا نصا شعريا قصصيا جميلا وممتعا ؤهو نص الحطيئة لدراسته وكشف معايير القص والحكي فيه، فهو وإن لم يرق إلى مستوى الشعر القصصي كما هو معروف عند الغرب أو الشعوب الإسلامية الأخرى (الفرس تحديدا) فإنه نص مميز، واستفزازي استفزاز الحطيئة لمن عاصره.

رابعا. للتطبيق: قال الحطيئة[1] يصف أعرابيا جوادًا، صاحب صيد ألوفا للفلوات

وطاوِي ثلاث عاصب البطن مُرمل بتيهاء لم يعرفْ بها ساكنٌ رسما[2]
أخي جفوة فيه من الإنس وحشة يَرى البُؤس فيها من شراسته نُعمى
وأفرد في شِعْبٍ عَجُوزٌ إزاءَها ثلاثةُ أشباح تخالهم بهما[3]
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأى شبحا وَسْط الظّلام فراعهُ فلما بدا ضيّفًا تَسوَّر واهتَّما
وقال ابنه لما رآه بحيرة أيا أبتِ اذبحني ويسرْ له طُعما
ولا تعتذر بالعُدم علَّ الذي طرا يظن لنا مالاً فيوسعنا ذَمًا[4]
فرْوَى قليلاً ثم أحجم برهةٌ وإن هو لم يذبح فتاه فقد هَمَا
فبيناهما عَنتْ على البعد عانةٌ قد انتظمت من خلف مسحلها نظما[5]
عطاشا تريدُ الماءَ فانْساب نحوها على أنّه منها إلى دمها أظمَا
فأمهلها حتى تروّت عِطاشها فارسل فيها من كنانته سهما
فخرّت نحوص ذاتُ جحش سمينة قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحمًا[6]

فيا بشره إذا جرّها نحو قومه ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى[7]

---

[1] الحطيئة: ديوان الحطيئة، من رواية ابن حبيب بن أبي الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، شرح أبي سعيد السكري، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2008، ص227 إلى 323.

[2] شرح الكلمات: (الطاوي) النائم على الجوع، (مرمل) فقير.

[3] البهم: جمع بهيمة أولاد الظأن.

[4] العدم: الفاقة، طرا جاء طارقًا بليل.

[5] المسحل: حمار الوحش.

[6] النحوص: الآثان والسمينة.

[7] كلمها: صرحها.

فباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم فلم يُغرموا غُرْمًا وقد غنموا غُنما
وبات أبوهم من بشاشته أبًا لضيفهم والأم من بشرها أمًا

المطلوب: أبرز السمات السردية في هذا النص الشعري.